باستمرار الى اعادة نظر جزئية بنظام الطائفية السياسية لا تلغيه من اساسه ، لعدم توفير قاعدة سياسية متوازنة مؤكدة ضمن الطوائف اللبنانية كلها ، بل تكتفي بتنقيحه وادخال تعديلات عليه ٠

والكلام الذي كنا نسمعه من كمال جنبلاط خلال الاحداث الاخيرة ، يحمل الحرقة نفسها التي كان يحملها كلامه بعد ١٩٥٢ و ١٩٥٨ : لو شارك المسيحيون لحدثت المعجزة ؟ ولكنهم ٠٠٠

هذا مع الاشارة الى انه كان يدرك بعمق مدى ارتباط « قلة » المشاركة هذه بنظام يوزع الامتيازات والحرمان بدرجات متفاوتة ٠ « تخضع الفئات الاسلامية في البلد ، على اختلاف مذاهبها ، للقهر بسبب الامتيازات الاقتصادية والمالية والسياسية والثقافية التي كان يستحوذ عليها ويمارسها بعض المنتسبين الى الطوائف المسيحية وخاصة العناصر المارونية منها ٠٠ » (١٢) ويروح جنبلاط على امتداد صفحتين من « المقدمة » يشرح التراتب الطبقي ـ الطائفي في لبنان وتاريخه ودور الاستعمار فيه ٠

ولعله من الضروري الاشارة الى واحدة من القضايا المهمة جدا لدى كمال جنبلاط والتي تعتبر مفتاح فهم الكثير من مواقفه ، لا بل مفتاح فهم سلوكه السياسي :

« تجدر الملاحظة ان النظام الطائفي المعمول به منع او حال دون تطور النظام السياسي على الاقل في مقابل تطور الليبرالية الاقتصادية ، وفي تمكين بعض الكفاءات من الصعود في سلم الرتبية الاجتماعية والقيادة السياسية في التمثيل النيابي وفي الحكم ٠٠ وقد شهدنا هذا السور من المال او اقسام واسعة منه تدعم بقاء القديم على قدمه وتجمد النظام السياسي وتزكي النظام الطائفي ٠٠ ويعود ذلك الى كون الفئات المستأثرة والغنية والفئات التي تنتسب الى المهن الحرة هي اكثرها من الطوائف المسيحية، هذه الطوائف التي فرضت في الانتداب قيام الكيان اللبناني وطبعته بطابعها وفرضت عليه امتيازاتها السياسية ، فجاء الامتياز الاقتصادي يؤثر بطبيعة الحال الامتياز السياسي » ٠ (١٣)

يلخص هذا الكلام فذلكة البرنامج السياسي المرحلي للاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية (آب ١٩٧٥) بوجهيه : التفاوت الاقتصادي ـ السياسي (لا نناقش هنا صحة هذا التفاوت) ، والهيمنة الطائفية ضمن النظام ٠ ويحتل هذا الاعتبار مكانة مهمة في فكر جنبلاط مما دفع الدكتور ادمون رباط الى اعتبار مقدمة البرنامج المذكور (التي تستعير هذه الاطروحة وتطورها) الوصية السياسية الحقيقية لكمال جنبلاط وافضل ما كتبه طيلة حياته ٠

هذا الوعي الحاد لدى كمال جنبلاط للمستويات المختلفة للتشكيلة اللبنانية عكس نفسه على ممارسته على غير صعيد ٠ فعلى المستوى الاقتصادي مثلا كان